الأدب العربي بين الفن و الجمال

Arabic literature between art and beauty

إعداد
حسين عبد النافع أبانكندا

Doi:10.12816/jnal.2021.144693
الاستلام: ٢/١٢/٢٠٢٠ القبول : ٢٠/١٢/٢٠٢٠

المستَخلص :

من الواضح أن الغاية في النقد الأدبي الوصول إلى حد عناصر الهوية الجمالية التي تميّز الخطاب الأدبي عما سواه، كما هو الحال عند النقاد الذين تناولوا الحديث عن أشعار الشعراء التي تم إيرادها في الصفحات السابقة، وإذا تمّ اكتشاف القيم الجمالية الشعرية و متعتها و أثرها على النفس يمكن الحكم على العمل الفني وقتئذ بالفن الصافي و يبدو أنّ دراسة الشعر من الناحية الفنية تعطي الجمال الشعري منازله و مراتبه كما تبرز مكنون ضمائره بالإضافة إلى أنّ الفن يحدّد جماليات التعبير الشعري عند هذا الشاعر و من ذاك، ولا يعني أن تتوافر أدوات الفن الشعري وجود الجمال فيه.

Abstract:

It is clear that the purpose of literary criticism is to reach the limit of the aesthetic identity elements that distinguish the literary discourse from others, as is the case with the critics who dealt with the discussion of the poems of the poets that were mentioned in the previous pages, and if the aesthetic values of poetry and their enjoyment and their impact on the soul were discovered The artistic work at that time can be judged by pure art, and it seems that the study of poetry from the technical point of view gives poetic beauty its homes and ranks, as well as the content of his conscience, in addition to that art defines the aesthetics of poetic expression for this poet and from that, and does not mean that the tools of poetic art are available and the presence of beauty in it.

المقدمة

يخطئ بعض الكتّاب من المحدثين لخلطهم بين مفهوم الجمال و الفن في الأدب العربي؛ إذْ لا يضعون حدّاً فاصلاً بينهما وأثّر ذلك سلبياً مع القارئ، و لعل سبب ذلك راجعٌ إلى عوامل منها ، إنّهم ذهبوا إلى قول بعضهم في تعريف الأدب بأنّه " فن جميل"[١] فنظروا إلى أنّ "جميلٌ" صفة للفن باعتباره ظاهرة لا تنفصل عن موصوفها (الفن) حسب موقعه في الإعراب كما جاء في التعريف السابق فعدّوا الجمال جزءاً لازماً للفن.

بالإضافة إلى هذه العوامل التي دفعتهم إلى هذا الخلط أنّ معرفة الفرق الدقيق بين الشيئين المتلازمين أمرٌ فيه مشقة و لا سيما إذا كان في الشيء غير محسوس، وتزداد هذه المشقة بالنظر إلى درجة الاتصال بين هذين الاثنين كما هو الحال في الفن و الجمال؛ لأنّ درجة الاتصال بينهما عالية، ومنها أنّ بعض الفلاسفة اعتبروا الفن ميداناً وحيداً لحقل الجمال و من هؤلاء الفلاسفة هيغل حيث قصر الفن على الجمال فقال: "نقصر مصطلح علم الجمال على الفن الجميل"[٢] و قال في موطن أخر: "الموضوع الحق لبحثنا هو جمال الفن منظوراً إليه على أنّه الحقيقة الوحيدة لفكرة الجمال"[٣] .

يلاحظ من كلام هيغل أنّ الجمال و الفن ظاهرتان متلازمتان بدليل أنّه أضاف الجمال إلى الفن و هذا يعني من وجهة نظره أنّ الفن هو الجمال، لكن هناك رأي في هذا الصدد خالف رأي هيغل و من معه مما يدع المجال للفرق بينهما يقول جون ديوى " إذا بحثنا الصلة بين الفن والجمال وجدنا أنّ الفن يشير إلى العمل الانتاجي والجمال يشير إلى الإدراك والاستمتاع"[٤] يُستفاد من هذا الكلام أنّ الفن متعلق بمن يقدّمه و الجمال بناظر إليه؛ لأنّ العمل الانتاجي هو عمل الإنسان يحاول أن يحوّله إلى مادة جديدة صالحة، أما الإدراك و الاستمتاع بالجمال فعمل من الناظر إلى منْ قدّم العمل الانتاجي (الفن) وفي هذه الحالة يمكن القول إنّ العمل الأدبي الفني مسعى من مساعي الأديب، لإنتاج عملٍ جماليٍ بقصد إثارة مشاعر السرور في نفس قارئ عمله؛ إذ كان الجمال والذوق العذب يكمُنان في الفن الشعري ولكنهما يَبرزان نتيجة من استجابة قارئ هذا العمل.

النموذج على التمييز بين العمل الفنّي والجمالي.

ولعلّ خير ما يُستشهد به على الحد الفاصل بين العمل الفني والجمالي هو ما أورده محمد بن سلاّم أنّه قال قائل لخلف: "إذا سمعتُ أنا بالشعر أستحسنه فما أُبالي ما قلت أنت

---

[١] أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، مبادئ في نظرية الشعر والجمال، ص. ١

[٢] هيغل فيلسوف ألماني تعمق في دراسة علم الجمال.

[٣] عبد المنعم مجاهد، دراسات في علم الجمال، عالم الكتب، ص ١١٩

[٤] الخبرة الجمالية. سرحان ص ٣٣ وانظر "فلسفة الفن" د. زكريا إبراهيم ص ١١٦ - ١٢٠

Doi:10.12816/jnal.2021.144693

فيه وأصحابك.قال إذا أخذت درهما فاستحسنته، فقال لك الصرّاف: إنّه رديء فهل ينفعك استحسانك إيّاه"[٥]. ومن الواضح أنّه قد تبيّن دور الناقد من خلال هذا الحوار كما تبدى أنّ العمل الفنّي قد يأتي عند من يقدّمه بأحسن صور، لكن قد ينظر إليه من يحكم عليه وهو الناقد بأقبح ما يكون، ويُعتبر عملُه حدّا فاصلا بين القيمة الفنية للقصيدة وخلافها.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الجمال حكمٌ يأتي من الناقد الذي له قدرة على الحكم بالجودة التي هي الجمال أو الرداءة التي هي القبح في العمل الفني؛ إذ كان من طبيعة الحال أنّ الفن موهبة لكل شاعر لكن بدرجات تختلف بين الفرد و الأخر.

النموذج على الفروق الفردية بين الشعراء في العمل الفني.

ولعل بهذه الفروق يتضح الجمال في العمل الفني وثبت من النقاد العرب منهم أنّهم يقولون هذا شاعر أشعر من غيره على الإطلاق من دون اختصاص فن من فنون الشعر هو أشعر فيه حينا، وعدم الإطلاق بتعيين فن من فنون الشعر حينا أخر.

والأنسب حسب رأي الباحث أنّه يرى ليس من المجدي أن يتناول بذكر قولهم هذا أشعر من هذا على الإطلاق؛ للسببين السبب الأول أنّه لم يدع مجالا للكشف عن الموطن الجمالي في أدبنا العربي عموما وشعرنا العربي بالخصوص، والسبب الثاني أنّه لا يخفى على أحد ما مسّ نقدنا العربي القديم من العيب، والقبح؛ إذْ إنّه أي (النقد العربي القديم) نقد انطباعي حيث إنّه يتحور على الانطباع.

ولعلّ من الواضح أنّ أبا هلال العسكري تطرق إلى ما قيل في الاختلاف قوى الناس في الشعر" ولاختلاف قوى الناس فى الشعر وفنونه ما قيل: كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب "[٦]

المثال على الجمال الأدبي في شعر امرؤ القيس.

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل[٧]

لقد وجد هذا البيت عناية كبيرة لدى النقاد حتى حكموا عليه بالجودة فأدّى ذلك إلى نسبة أشعر الشاعر إلى امرئ القيس، بدليل أنّ هذا البيت ينصّ على وصف امرئ القيس لفرسه إذا ركبه، ورحلاته للصيد، كما تطرق إلى شرح البيت نفسه قدامة" فإنما أراد أن يصف هذا الفرس بالسرعة وأنه جواد، فلم يتكلم باللفظ بعينه، ولكن بأردافه ولواحقه التابعة له، وذلك أن سرعة إحضار الفرس يبعها أن تكون الأوابد، وهي الوحوش،

---

[٥] محمد بن سلاّم الجمعي، طبقان فحول الشعراء، ت/ محمود محمد شاكر، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، ص .٧

[٦] أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر، ت/ علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية صيدا بيروت،ص.٢٦

[٧] الزوزني ابو عبد الله، شرح المعلقات السبع، دار الكتاب العربي بيروت،ط/٦، ص. ٣٢

كالمقيدة له إذا نحا في طلبها والناس يستجيدون لامرئ القيس هذه اللفظة، فيقولون: هو اول من قيد الأوابد، وإنما غزا بها الدلالة على جودة الفرس وسرعة حضره، فلو قال ذلك بلفظه لم يكن الناس من الاستجادة لقوله مثلهم عند إتيانه بالردف له "[٨] .

ولعلّ أنّ امرأ القيس تفوق على سائر الشعراء في الوصف الذي لم يسبقه عليه أحد، وأثّر ذلك بأن يكون الجمال الأدبي كامناً في شعره وهذا البيت الذي سبق عرضه على وجه الخصوص. ومما يؤيد هذه الفكرة أنّ ابن وكيع قال في معنى قيد الأوابد: "هي نهاية حسن الاستعارة"[٩] وإن كان ابن سنان يعترض لهذا الأسلوب من امرئ القيس فقال عن المعنى للبيت نفسه" لأنه أراد أن يصف الفرس بالسرعة فلم يقل إنه سريع وقال: قيد الأوابد وهي الوحوش أي أنه إذا طلبها على هذا الفرس لحقها لسرعته فكأنه قيدها له وفي هذا من المبالغة ما ليس في وصف الفرس بأنه سريع لأن الفرس قد يكون سريعاً ولا يلحق الوحش حتى تصير بمنزلة المقيدة له.وقد استحسن الناس هذا اللفظ من امرئ القيس حتى قالوا: هو أول من قيد الأوابد"[١٠].

ومما يدل على عدم موافقة ابن سنان على أسلوب امرئ القيس قوله: وفي هذا من المبالغة ما ليس في وصف الفرس.

و من الذين يؤيدون أنّ امرئ القيس هو الذي اخترع هذا المعنى لم يسبقه أحد عليه ابن أثير يقول: " هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئًا لم يكن قبله، فمن ذلك أنه أوَّل من عبَّر عن الفرس بقوله: "قيد الأوابد"٢ ولم يسمع ذلك لأحد من قبله"[١١]. ويُلاحظ أنّ كلما لقيه هذا البيت لامرئ القيس من النقاد دليل على الجمال الأدبي في شعره.

المثال على الجمال الأدبي في شعر زهير بن أبي سلمى

وَمَا الْحَرْبُ إِلّا مَا علمتمْ وَذُقتُم ... وَما هوَ عَنها بِالْحَديثِ الْمُرَجَّمِ[١٢]

---

[٨] ط/١ ١٣٠٢ هـ ص.٥٨ مطبعة الجوائب - قسطنطينية قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، نقد الشعر،

[٩] الحسن بن علي الضبي التنيسي أبو محمد ابن وكيع، المنصف للسارق والمسروق منه، ت/ عمر خليفة بن إدريس، جامعة قات يونس، بنغازي، ط/١ ١٩٩٤ م، ص.٥٩٤

[١٠] أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م ص. ٢٣١

[١١] ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، ص ٨٧

[١٢] الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص.١٤٣

ولعل هذا البيت مما يجعل النقاد أمثال ابن قدامة[١٣] يقدّمون زهيرا على غيره من الشعراء في المدح إذا رغب، كان زهير معجباً بهرم بن سنان حينما سعى لإيقاف الحرب داحس والغبراء فأجمل قصائده في مدح هذا الشخص، ولقد نال الشاعر إعجابا حتى عند عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه. قال:" أنشدونى لأشعر شعرائكم، قيل: ومن هو؟ قال: زهير، قيل: وبم صار كذلك؟ قال: كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتّبع حوشىّ الكلام ولا يمدح الرجل إلّا بما هو فيه"[١٤]

المثال على الجمال الأدبي في شعر النابغة.

أنبئت أنّ أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد
فلا لعمر الذي قد زرته حججا وما هريق على الأنصاب من جسد
ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه إذن فلا رفعت سوطي إليّ يدي
هذا لأبرأ من قول قذفت به طارت نوافذه حزّا على كبدي

وكان النابغة الذبياني مجيدا في الاعتذار حتى قيل إنه أشعر الناس إذا رهب[١٥]، ولعلّ من الواضح أنّ هذه الأبيات تتضمن اعتذار النابغة إلى النعمان بن المنذر حينما هدد النابغة بالقتل نتيجة فعل الوشاة حينما كذبوا عليه إلى أن قال المنذر إنّ من يأتيه برأسه فله مكافآة، وقال النابغة يعتذر إليه ليعفو عنه وهذه الأبيات من أجمل ما يذكره النقاد من الأربيات للاعتذار.

المثال على الجمال الأدبي في شعر الأعشى قيس.

ذكر ابن قتيبة أنّ الأعشى هو أوّل من ذكر الصنج في شعره فقال:[١٦]

ومستجيب لصوت الصّنج تسمعه إذا ترجّع فيه القينة الفضل

مما يُلاحظ أنّ الشاعر شبّه العود بالصنج، ولعلّ من الواضح أنّ شعر الأعشى نال إعجاباً عظيماً لدى النقاد بما يدلّ عليه على ما ذكره البغدادي" وَهُوَ أول من سَأَلَ بِشعرِهِ وَكَانُوا يسمونه صناجة الْعَرَب لجودة شعره وَكَانَ أَبُو عَمْرو بن الْعَلَاء يفخم مِنْهُ ويعظم مَحَله وَيَقُول شَاعِر مجيد كثير الأعاريض والافتنان وَإِذا سُئِلَ عَنهُ وَعَن لبيد قَالَ لبيد رجل صَالح والأعشى رجل شَاعِر وروى الْمفضل بِسَنَدِهِ عَن الشّعبِيّ قَالَ عبد الْملك بن

---

[١٣] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الشعر والشعراء، دار الحديث بالقاهرة ١٤٢٣ هـ ،ص.١٣٧

[١٤] المكان نفسه

[١٥] محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، ط/١ ١٤١٧ هـ

[١٦] ابن قتيبة الشعر والشعراء، ص. ٢٥٠-٢٥١

مَرْوَان لمؤدب أَوْلَاده أدبهم بِروَايَة شعر الْأَعْشَى فَإِنَّهُ قَاتله الله مَا كَانَ أعذب بحره وأصلب صخره قَالَ الْمفضل من زعم أَن أحدا أشعر من الْأَعْشَى فَلَيْسَ يعرف الشّعْر"[١٧]

ومما لا يخفى أنّ أبا عمرو بن العلاء، والمفضل أعجبا بشعر الأعشى مما ترك لنا مجالاً لإدراك مواطن الجمال في شعره.

ولعلّ من الواضح أن الغاية في النقد الأدبي الوصول إلى حد عناصر الهوية الجمالية التي تميّز الخطاب الأدبي عما سواه، كما هو الحال عند النقاد الذين تناولوا الحديث عن أشعار الشعراء التي تم إيرادها في الصفحات السابقة، وإذا تمّ اكتشاف القيم الجمالية الشعرية و متعتها و أثرها على النفس يمكن الحكم على العمل الفني وقتئذ بالفن الصافي و يبدو أنّ دراسة الشعر من الناحية الفنية تعطي الجمال الشعري منازله و مراتبه كما تبرز مكنون ضمائره بالإضافة إلى أنّ الفن يحدّد جماليات التعبير الشعري عند هذا الشاعر و من ذاك، ولا يعني أن تتوافر أدوات الفن الشعري وجود الجمال فيه.

النموذج على الأشعار التي خالت من الجمال.

ولعل مما يصوّر الحقيقة ويمهّد الطريق إلى دراسة عميقة مفهومة في هذا الإطار أن تُتناول دراسة ايديولوجية؛ لتكشف ما يكمنه الايديولوجيا من إفساد جمالية النص الأدبي شعراً ونثراً.

الايديلوجيا.

ولعل من الواضح أنّ لايديولوجيا أثرا سلبيا على الشعر العربي، فيؤدي هذا الأثر إلى إفساد الجمال الشعري كما تطرق إليه بعض النقاد القدامى والمحدثين على حد السواء، و يُلاحظ أن خير الشاهد في ذلك قولهم في قصيدة المتنبي يهجو بها كافور الأخشيد.

العـــــبدُ ليس لحرٍ صالحٍ بأخٍ لو أنه في ثيابِ الحُرِّ مـــــــــولودُ[١٨]

لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معه إنَّ العبيـــــــدَ لأنجاسٌ مناكـــــــيد

الذي يدقق النظر في هذين البيتين يرى فيهما جمالا بلاغيا لكن في الوقت نفسه يرى احتقار المتنبي البالغ للسود ومثل هذا الحتقار في الشعر العربي يدرسه النقاد ما يندرج تحت النقد الثقافي، والنقد الاجتماعي، فالمتنبي يهجو كافور الأخشيد ويصفه بالعبد لأجل نوعه الأسود، ويعيبه بعدم الكفاءة وعدم القدرة على حكم مصر. يبدو أليس ما يدفع المتنبي إلى هذا الهجاء لكافور إلا الايديولوجيا التي يفسد الجمال الشعري.

---

[١٧] عبد القادر بن عمر البغدادي،خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ت/ عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/٤ ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، ص. ١٧٦

[١٨] مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ج/٨ ص ٣٩٧. أحمد قبش بن محمد نجيب

الخاتمة

يُتوصل من خلال ما سبق ذكره أنّ الجمال يظهر من خلال العمل الفني فدلّ ذلك على الربط الشديد بينهما لكن من الواضح أنّ الفن وسيلة إلى تحقيق الهدف المرجو في الحقل الادبي و هو الاستمتاع بالجمال في النص شعراً كان أو نثراً و من الممكن أن تفوت هذه الوسيلة فيفوت الهدف الذي يرمي إليه أدبنا و يخلو الفن من مواطن الجمال و تتبدى مواطن القبح في ذلك فبهذا كله إنّ الفرق واضح وضوح الشمس بين الجمال و الفن مع شدة القرب بينهما و أما قصر الفلاسفة الجمال على الفن بدون النظر إلى احتماله القبح نوعٌ من الغلط و الخطأ المبين؛ لأنهم أغفلوا الجانب الايديولوجي إذا تغلب على الفن لدى شاعر فتقلّ أهمية الجمال حينا أو عدم هذا الجمال حينا أخر، و أما تعريف بعضهم للأدب بأنّه فنٌ جميلٌ فليس بالدقيق و الأدق من وجهة نظري الأدب إجادة التعبير.

المصادر والمراجع.

أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، مبادئ في نظرية الشعر والجمال.
هيغل فيلسوف ألماني تعمق في دراسة علم الجمال.
عبد المنعم مجاهد، دراسات في علم الجمال، عالم الكتب
الخبرة الجمالية. سرحان ص ٣٣ وانظر "فلسفة الفن" د. زكريا إبراهيم
محمد بن سلاّم الجمعي، طبقان فحول الشعراء، ت/ محمود محمد شاكر، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع
أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر، ت/ علي محمد البجاوي،
الزوزني ابو عبد الله، شرح المعلقات السبع، دار الكتاب العربي بيروت،ط/٦
مطبعة الجوائب - قسطنطينية قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، نقد الشعر،
الحسن بن علي الضبي التنيسي أبو محمد ابن وكيع، المنصف للسارق والمسروق منه، ت/ عمر خليفة بن إدريس
أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى
ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة،
محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، ط/١
عبد القادر بن عمر البغدادي،خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ت/ عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة،
مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ج/^ ص ٣٩٧. أحمد قبش بن محمد نجيب

Doi:10.12816/jnal.2021.144693